مشاكل التعريب في الصحافة الروسية

كتبت مجلة شعوب آسيا وافريقيا الصادرة عن أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي بحثا يتعلق بقضايا التعريب في بلدان المغرب العربي كتبه المستشرق الروسي (سعيد كامليف) (I) وقد اعتمد هذا المستشرق في بحثه على مجموعة الدراسات والابحاث التي نشرت بالصحافة العربية والفرنسية بالمغرب في موضوع مشاكل اللغة العربية والتعريب .

وقد جاء في هذا البحث ، « ان اقرار اللغة القومية هو احدى المشاكل التي تعترض النهضة الثقافية وتطورها في بلدان آسيا وافريقيا التي منيت بالاستعمار حقبة غير قصيرة من الزمن ، وقد تكون هذه المشاكل متبلورة في البلاد الناطقة بالضاد أكثر من غيرها » .

وفي اطار ابراز هذه الفكرة استند الباحث الى ما ورد في بعض خطب ومقالات المسؤولين عن التعليم والثقافة مؤكدا « ان استخدام اللغة العربية في المدارس ونشرها على المستوى الحضاري هو الحل الوحيد للمشاكل التي تتخبط فيها الثقافة العربية في هذه البلاد اليوم » وقد أورد الكاتب جملة من المشاكل التي تعترض نشر اللغة العربية على النطاق الاوسع في بلاد المغرب العربي ملاحظا أن الازدواجية المفروضة على التعليم الابتدائي ووجود مدارس للبعثات الاجنبية الفرنسية . وفرنسة التعليم العالي في بعض الاقسام والمواد جملة لا يمكن معه بحال من الاحوال ان تكون للغة العربية في هذه البلاد أية شخصية .

واذا ألقينا نظرة بسيطة على مستوى المعلمين الذين يقومون بتدريس اللغة العربية في بلاد المغرب العربي نجد ان كثيرا من الذين يقومون بهذه المهمة هم من الذين لم يستكملوا ثقافتهم بعد ، ولهذا تأثيره القوي في عرقلة نشر اللغة القومية .

وقد أشار الباحث الى دراسات الاساتذة عبد العزيز بنعبد الله مدير المركز الوطني للتعريب ومحمد الفاسي رئيس الجامعة المغربية واحمد الاخضر كاتبها العام فبين مدى التباين الموجود بين التعليم في المغرب ، ونظيره في الشرق الذي امسى منذ وقت طويل معربا في كثير من شعبه العالية .

* * *

ومن هنا تطرق الباحث الى القضية التي تشغل بال الرأي العام العالمي العربي وهي قضية المصطلح العلمي غير الموحد ، حيث أبرز عن طريق ما كتبته الصحف والمجلات العربية خطورة هذا الاختلاف مؤكدا أن التغيير من شأنه ان يحدث عوائق أقوى في طريق تقدم لغة الضاد ، ومسايرتها الحضارة الحديثة ، وقد اقترح الكاتب في هذا الصدد تأليف قاموس علمي عربي موحد تشارك في وضعه لجنة عليا للخبراء في اللغة العربية واللغات الاجنبية ، مذكرا بالتوصيات التي اسفرت عنها المؤتمرات العلمية واللغوية في هذا الموضوع كمؤتمر اليونسكو ، ومؤتمر الآثار ، ومؤتمر التعريب الذي انبثق عنه المكتب الدائم لتنسيق التعريب .

وفي صدد هذا المكتب أورد الكاتب ما اقترحه السيد أحمد الاخضر في مؤتمر التعريب الرامي لانشاء معهد المغرب العربي للتعليم ، يكون مختصا بتحضير الكتاب المدرسي وتوحيد مناهج التعليم الشيء الذي من شأنه أن يسهل مهمة المكتب الدائم لمؤتمر التعريب بخصوص بلدان المغرب العربي والذي لاشك ـ يقول الكاتب ـ سيرفع مستوى مشاكل التعريب في المغرب العربي الى ما توجد عليه في الشرق العربي اليوم .

وختم الاستاذ سعيد كامليف بحثه هذا باثارة الصراع القائم اليوم في العالم العربي بين الفصحى والعامية وتشكك بعض العلماء في قدرة لغة الضاد على مسايرتها لتقنية العالم الحديث . وقد أورد رأي أحد المستشرقين السوفيات في حل هذه القضية التي لا تعدو أن تكون مشكلة لغوية بسيطة لا تحتاج الى هذه الضجة القائمة اليوم ولا تحتاج الا الى تبسيط الفصحى للرفع من العامية .

(I) عرب لنا هذا البحث الاستاذ ماليشفسكى من سفارة روسيا بالرباط

رايسكه ، وأما ي.ج. ايشهورن Eichhorn ، وهو أيضا من المستشرقين ، فنشر سنة 1781 المكاتيب التي بعث بها رايسكه عام 1757 بخصوص مسألة السكك العربية الى مدير الخزينة في متحف مدينة دريسدن .

وقد رفع رايسكه من شأن علم اللغة العربية وأدبها وجعله علما مستقلا . ولم ينتبه أحد من معاصريه الى استقلال هذا العلم وعدم ارتباطه بغيره من العلوم اللغوية واللاهوتية مثلما أدرك ذلك رايسكه ، ولم يتوجه أحد بهذه اليقظة ضد فقه اللغة المقدسة philologia sacra الذي كان مسيطرا على عقول العلماء في ذلك العصر ، وكان مقصد هذا النوع من علم اللغة ان صاحبه لم يهتم بالعربية الا من حيث اسداؤها له فوائد جمة في تفسير العهد القديم ، وكان يكتفي بالبحث عن أصول كلمات عربية في القاموس العربي لجولديس ويقابلها بكلمات عبرانية مختارا له من المعاني المختلفة لكل كلمة المعنى الذي يوافق اغراضه . ورغم ان احدى مميزات عصره كان نوع العلم المدعو بـ Polyhistorismus أي ان العالم تخيل انه بامكانه لا بل من واجبه تحصيل العلوم كلها والوقوف على التطور التاريخي بأجمعه فقد عرف رايسكه أن للطبيعة الانسانية وللعقل الانساني حدا ونهاية ، لذلك كف مرة عن تحصيل آثار المؤرخ الروماني سيسرو « لاجل لا نهائية الاعمال لنقص في الوسائط وليل عظيم لليونانيين وقد كرس وقته للعربية فقط فرفض اضاعة وقته وقوته في تحصيل اللغات المتجانسة . وكان غرض رايسكه اثبات الوحدة الباطنية الروحية لعلومه اللغوية والتاريخية والادبية ، ولم يهتم بالعلاقة الظاهرة بين اللغات السامية . مما لا شك فيه انه كفقيه في اللغة رأى أصل العلم وأساسه في درس عميق للغة نفسها وكان معلوما عنده ان لا يهدى الى وقوف حقيقي على اللغة العربية الا طول الاناة والصبر في مطالعة آثار المؤلفين العرب سنة بعد سنة بلا انقطاع وتحقق له بان مؤلفات العرب المسلمين افضل من كل ناحية من مؤلفات العرب النصارى بكثير . ولم يكن يخفى على فراسته ان طبعات التوراة والانجيل العربية ترجمها اما نصارى شرقيون ممن لم يكن لهم علم باليونانية أو العبرانية أو العربية ، أو انها كانت تراجم عجمية على أيدى اليسوعيين الذين لم يعرفوا الا الفلجاتا (أي الترجمة اللاتينية للتوراة والانجيل من القرن الخامس م) . ولذلك اجتهد رايسكه في فتح طريق الى خزائن آداب العرب المسلمين وتوفق في ذلك وأصبح هاديا للآخرين . ولكن درس اللغة لديه ليس غرضا بنفسه بل رأى فيه أساسا للكشف عن التاريخ . ونظرته هذه أدت به الى ادراك أهمية الدور الذي لعبه الاسلام في تاريخ الشرق . فانه لم ينظر الى المتون العربية نظرة اللغوي المصرف الذي لا يكترث الا لفهم معاني الكلمات كما قصدها المؤلف نفسه بل نظر اليها نظرة المؤرخ الذي جعل لتاريخ الاسلام مقامه من تاريخ العالم العام وكان يشرح هذه المتنوعات مثلما يشرح المشاهد في دار التمثيل عند تأمله في الوقائع الجارية على المسرح اذ يقوم بالفحص عن بواعث الاشخاص الممثلين وعن مراد الشاعر . ورغم ان رايسكه لم يتوفق بتأليف « تاريخ الاسلام » كما أراده فان هذا العالم البعيد النظر وضع أساسا للعلوم الاسلامية العصرية التي تبنى كعلم تاريخي على أساس علم اللغة العربية . أما معاصروه فلم يستطيعوا فهم افكاره الجسورة ولا تأملاته الجليلة فصار «شهيد الادب العربي» كما سمى نفسه وأصبح تاريخ حياته تاريخ الآلام والظلم كما تشهد به مذكراته المؤثرة . وكما ان للجرأة التي سار بها دون اكتراث على الطريق الذي اعتبره مرة صحيحا أثرا ساميا فانه من المخجل انه لم يكتشف أحد من أولى الامر في جامعات أوربا أهمية هذا الرجل العبقري العظمى ، هذا الرجل الفذ الذي كان من أعظم علماء الآداب العربية ، ومن المخجل كذلك ان هذه الآداب التي أراد تشييد بيت لها لم تحصل في المانيا القبول الذي استحقته . ولكنه من الطريف أن نذكر انه أسس في القرن التالي في لايبزج أي في عين المدينة التي قاسى فيها ما قاسى معهد لدراسة اللغة العربية يفتخر بأن يعتبر رايسكه من أجداده الروحانيين .